

بين جود التاريخ وانفعال الواقع:

سرود وتربية

قراءة في الرواية المغربية "جيران أبي العباس" لأحمد التوفيق

**Between The Generosity of History and The Emotion of
Reality: Narratives and Education**

**A Reading of The Moroccan Novel "Neighbors of Abu
Abbas" By Ahmed Al-Tawfiq**

د. حياة البستاتي

أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي

المغرب

hayatbosati800@gmail.com



بين جود التاريخ وانفعال الواقع:

سرود وتربية

قراءة في الرواية المغربية "جيران أبي العباس" لأحمد التوفيق

د. حياة البستاني

ملخص:

الدراسة "بين جود التاريخ وانفعال الواقع: سرود وتربية/ قراءة في الرواية المغربية"، "جيران أبي العباس"، قراءة في نموذج الرواية التاريخية المغربية لرائد من روادها "أحمد التوفيق" الأكاديمي والمؤرخ والروائي المغربي الذي اختار في هذا العمل أن يتحدث عن علم من أعلام الصوفيّة المعروف بـ"أبي العباس السبتي"، وهو من العلماء الأتقياء وأحد الرجال السبع لمراكش، أصل طريقته على الإنفاق والإحسان، عاش خلوة لمدة أربعين سنة بجبل ديليز، وهو صاحب المقولة الشهيرة: "الوجود ينفعل بالوجود"، وكان لمذهبه بالغ الأثر على جيرانه الذين عاصروه في ذلك العهد ثم الأجيال التي تتابعت بعد ذلك.

الرواية تكشف عن الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعلميّة التي عرفها المغرب إبان نشوء الدولة الموحدية وسقوط المرابطين في القرن الثاني عشر الميلادي، وهي الفترة التي عاش فيها هذا الزاهد، وكان الكاتب شديد الحرص على مسألة التّحقيق والتّوثيق لما يقدّمه من وقائع تاريخيّة وقعت بالفعل في الماضي وتظهر براعته أيضا في تقديمها من خلال ما هو تخييلي، وفي عنصر التشويق الذي لا يكاد يفارقه حين تقرأ الرواية، وفي اختيار قالب فنيّ بمواصفات محدّدة وتقنيّات سردية خاصّة منحت الكتابة شعريّتها وبعدها الجماليّ، وتوقّفت عند بعضها وركّزت على مذهب "أبي العباس الصّوفي" الذي ظهر في وقت لم تنتشر فيه البدع، لأشير إلى أنّه قائم مستمرّ في الزّمن وفي قيم المجتمع المغربيّ الحديث باستمرار والذي يدعو إلى التّضامن ومساعدة المحتاج والصّدقة واعتبار العطاء تحصينا للأفراد والأمم من المصائب.

ولم أكن لأنسى ربط هذا العمل بالقيم التي عُرف بها المغاربة من كرم وحسن ضيافة وتضامن وانفتاح على الآخر واعتداد بالسيادة والتكافل الاجتماعيّ، فهي ليست وليدة اليوم بل من صميم مذهب هذا الرّجل، وقد مثّلت ما كان بين المغاربة من تضامن ولحمة في كارثة زلزال الحوز.

العمل المقارب، إضاءة قويّة لتاريخ الغرب الإسلاميّ وتعريف بأعلامه من العلماء والقادة، كما أنّه علامة جماليّة تضاف إلى ملامح الرواية العربيّة الحديثة.

الكلمات المفتاحية: الرواية التاريخيّة، الغرب الإسلاميّ، العالم الصّوفيّ أبو العباس السبتي، القيم الإنسانيّة الكونيّة، جيرة الأخيار.

Abstract:

The study, is a reading in a model of Moroccan historical, novel by a pioneer of its pioneers: Ahmed AL_Tawfiq; a Moroccan historian and intellectual who has held positions including that of director of the institute of African studies, Minister of endowments and Islamic Affairs, and dean of the faculty of literature in Rabat.

The idea of the book revolves around of imam of Sufism in the Islamic west: Abu Abbas AL-sabti. The author reveals the conditions social, economic, scientific and political circumstances that prevailed in his period of the emergence of the Al mohad state in the 12th century, and the fall of the state of Murabitain, which it extended to the Maghreb and Andalusia.

The celebrated man is one of the righteous scholars, one of the saints of Morocco; and one of the seven men of Marrakesh, the origin of his method is based on charity and spending, he is the one who said: Existence is moved by generosity. His doctrine had a profound impact his contemporaries and successive generations in Morocco, the novel that I am analyzing reveals the prevailing conditions inside yesterday's Morocco and the Moroccans interest on in science and religion, the writer was successful and skilled in combining what is historical carefully documented, and what is aesthetically imaginative in terms of artistic means and narrative mechanisms that gave the work its aesthetics and poetry.

My reading focused on some of the values of his doctrine that did not stop at his time, but rather continued to the borders of our current era, and for which Moroccans were known all over the word: The values of generosity and good hospitality, Helping the needy, Solidarity, Accept the other, Self-esteem, and respect for other religions.

Key words: Historical Novel, Islamic West, Abu Abbas Al-Sabti, Universal Human Values, The Impact of The Doctrine of Charity on Moroccans.

1- ديباجة:

"كل قراءة مرآة حبلى بتفاصيل قارئها، وهي لا تنقل فقط وجهه للعالم ولكنها تعكس ظلال ما سكت الكاتب والعالم عنه، تلك الظلال التي تتحرك بغنج في جغرافيا القارئ، ويحدث أننا حين نمرّ من طريق أخرى -في البدء دائما-، أن تتكوّر خيوط اللّغة على نفسها ثمّ ما تفتأ تزداد رفعة وطولا ثمّ تكون أكثر سمكا وحجما لتبدو أكبر ممّا كانت عليه....

كلّ اللّعبة، بين القراءة والكتابة... وهي أكثر من مجرد كرة من خيوط صوف في انتظار ناسج...

2- الرواية والعلبة السوداء البيضاء:

للسرد كبد رطبة وصدر يسع جميع الأوجاع والتفصيل والمواقف فهو خير من ينصت إلينا حين تكثر الأصوات، ولا نكاد نميّز فيها بين صوت وصوت، وحين تختلط الأشياء والآراء وتلبس علينا الصّور والمشاهد ونرغب في وقفة مع الذات والآخر ونتوق إلى فهم ما يجري حولنا، يأتينا حافظا أميننا على تاريخنا، بطولاتنا وانكساراتنا في الماضي والحاضر، وينقلنا بسهولة ويسر بين الدروب والأمصار والجهات، من أقصاها إلى أقصاها قبل أن تفعل ذلك الألياف البصريّة في زمن الرقمنة.

السرد ملك عادل -دائما- حين يكون المبدع أصيلا، ومهما تكن وجهة نظره، ملك، لأنّه يصنع سيادته على ما يسرد ويسير به حيث تنطلق خيل الفكرة التي تفتق عنها، فتشغل عقول القراء حتى ينشغلوا بأمرها، وهو عادل لأنّ الوقائع التي ينقلها إلينا والشخصيات التي يرسمها في صفحاته ويرمم بها ما يرممه بتقنيّات متنوّعة للتخييل وطرائق متباينة للعب بها في امتدادات نصوصه، كلّ ذلك ما هو إلّا أثر وعلامة أو علامات دالة على نوع من الحضور هنا على هذه الأرض لذلك لا يمكن إلّا أن يكون وفيّا ولا يعرف كيف يخون.

في هذه العلبة السوداء والبيضاء، تكمن كلّ أسرار الحياة الحديثة بقضاياها وإشكالاتها وجميع نتوءاتها وشقوقها وتصدعاتها الصّغيرة والهائلة، وفي هذه الجغرافيا التفسيريّة والاجتماعيّة أقف عند منجز روائي مغربي لم أكن أنوي أن أقاربه بهذا الشكل، إذ كنت سأقدّمه نموذجا للرواية التاريخيّة الجديدة إلى جانب مجموعة من المنجزات السردية الطويلة في هذا المنحى ولكنّ شيئا ملحا يطرق بابي بقوة ويلجّ عليّ أن أقول فيها بشكل مختلف. هي صخور جبلية تدرجت في غفلة ممّا جميعا، من جبال الأطلس المغربيّة لتغيّر مساري الأول، وأنا أسجّل ضمنه ملاحظة مهمّة، وهي أنّ الرواية التاريخيّة اتّجاه قويّ في السرد العربيّ المعاصر، ومهما يكن من أمر هذه العودة الجديدة إلى التاريخ واستلهاّم أحداثه وشخصياته وسوق سياقاته في السرد زمن التكنولوجيا الرقمية في جيلها الرابع أو الخامس.

ومهما يكن من أمر هذه البراعة في التوظيف مشرقا ومغربا، في مثل أعمال نذكر منها: "عزازيل" ليوسف زيدان و"زمن الخيول البيضاء" و"قناديل ملك الجليل" لإبراهيم نصر الله و"رباط المتنبّي" و"ربيع قرطبة" و"زينة الدنيا" لحسن أوريد و"حبس قارة" لسعيد بن سعيد العلويّ، وهي أعمال استوقفتني طويلا وتدبّرت من خلال معظمها بعض ما كان في زمن الأجداد، وبعض ما تُقَدِّرُ الرواية أن تقوم به، ومن ذلك، هذا السّفر عبر الزّمن وعبر النّفس وعبر المكان إلى أقصى النّقط والأعماق. وكيفما كان تأويلنا للدّوافع واستقراؤنا لهذا

التوظيف وطرائقه ونماذجه وما له وما عليه، فإنّ الرّاسخ لأيّ مقارب هو تمكّن ثلّة من الرّوائيين العرب من شقّ نبع جديد يخرج منه الماء على الرّواية الجديدة حتّى صار النّبع نهرا جاريا في أديم الكتابة الأدبيّة الحديثة، ومنها المغربيّة، نهرا يجري فيه الماء أكثر من مرّتين وثلاث ورباع، وصارت بذلك قضيّة التّاريخ وما بعد الحدائثة في الرّواية العربيّة الجديدة من أبرز ما يمكن أن يجذب انتباه الباحث في السّرد المعاصر، ومن رواد هذا الاتّجاه صاحبنا "أحمد التّوفيق"، وهو من منطقة "إيماريغن" القائمة في الأطلس الكبير الغربيّ، فيها فتح عينيه أوّل مرّة سنة 1943م، أكاديميّ ومؤرّخ وروائيّ مغربيّ، عمل أستاذا محاضرا في شعبة التّاريخ، وأنجز رسالته في تاريخ المغرب الوسيط. اهتمّ بعلم الآثار وتاريخ المغرب، وتقلّد مناصب مهمّة منها: نيابة عميد كليّة الأدب بين 1976 و1978، وإدارة معهد الدّراسات الإفريقيّة بين 1989 و1995م، كما تولّى مهمّة محافظ للخزينة العامّة للمملكة من 1995 إلى 2002، وشغل منصب وزير الأوقاف والشؤون الإسلاميّة عام 2002م. وهو صاحب "غريبة الحسين" و"جارات أبي موسى": روايتان قرأتهما منذ زمن بعيد وأتوقّع أن يستمتع القارئ العزيز كثيرا بقراءتهما، فهما بالفعل علامة تستحقّ الوقفة والدّرس وتقدّم لنا سردا تخييليّا يوظّف وقائع وشخصيّات وقعت بالفعل في ما مضى من الزّمن، وقد أنتج أيضا في هذا الجنس:

"شجيرة حنّاء وقمر" و"السّيل"، وكتّب في السّيرة "والد وما ولد"، وله في التّاريخ: دراسته "في تاريخ المغرب" وبحث موسوم بـ"المجتمع المغربيّ في القرن التّاسع عشر"، وله كتاب "يهود دمنات"، أمّا العمل المقارب فهو عمل روائيّ موسوم بـ"جيران أبي العباس" وهو إنجاز بديع أخذ منه وقتنا طويلا لتحقيق التّواريخ التي أثبتتها فيه، وأنت لا تراها إلا امتدادا لروايته "جارات أبي موسى" أو كما جاء على لسانه في حوار معه، قال: "فيها صدى منها" أي في "جيران أبي العباس" صدى من "جارات أبي موسى"، وقد عدّها كلمة شكر يتوجّه بها إلى مراكش التي اعتبرته من رجالاتها السّبعة وأثّرت على تكوينه ومساره أيّام كان طالبا من طلابها.

والرّواية "جيران أبي العباس": طبعة دار الأمان - الرّباط-، من الحجم المتوسّط، عدد صفحاتها 272 صفحة، مكتوبة على نظام الفصول المرقّمة، تحتوي 65 فصلا. كانت بمثابة علبة سوداء -ككلّ رواية لكاتب كبير- تتضمّن حقائق المغرب الموحدّي¹ وعلاقاته بجيرانه وحروبه ونهضته وسياسة قادته واجتهادات أبنائه، وهو إلى جانب ذلك ساحة بيضاء فسيحة لأنّ ما يُحكى ويُكتب ليس كلّ شيء، ولأنّّه يوجد في الأدب مساحة هي من حقّ المتخيّل الذي يتّجه بالمعنى وجهاته حيث يمكن للقارئ أن يقول كلمته دائما، وبناء على ذلك يمكننا طرح الأسئلة التّالية: ما الذي تكشفه هذه الرّواية من هذا التّاريخ التّليد؟ وما الذي يمكننا أن نستفيده من سردها في زمننا الحاضر؟ ما الذي يجود به السّرد في هذا العمل الإبداعيّ؟ أيّ مستقبلات نستقبلها في الكتابة الأدبيّة بلعبة التّخييليّ والواقعيّ؟

1- إشارة إلى عهد الموحّدين والدّولة الموحّديّة: دولة إسلاميّة، أسّسها "محمّد بن تومرت" -ادعى أنّه المهديّ المنتظر- في القرن السّادس للهجرة، حكمت المغرب والأندلس من 1121م إلى 1269م.

3- "الجود" في السرد التاريخي: "جودة السبك وإشراق العبارة ودقة المعلومة" ورشاقة المتخيل:

عمل تسطع فيه عتبه العنوان بطاقة ضوء قويّة لا تضيء فقط هذا المنجز الإبداعيّ بل تضيء بقوة تاريخ المغرب الأقصى في عهد من عهوده البرّاقة -عهد الدّولة الموحّديّة-، ومعها تجلي ملامح رجاله الذين جعلوا منه مشرقاً للنّبل والوسطيّة والشرف وكلّ الأنوار.

كتابة جاءت في سياق تقديم سيرة لأشهر رجالات مراكش في زمن نهضة الغرب الإسلاميّ، وهو "أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي"، علم من أعلام التّصوّف العمليّ الذي كان مذهبه هو إسعاف النّاس وتقديم العون لكلّ من يحتاج إليه دون تمييز، ولذلك وقف الكاتب وقفته ليتدبّر مذهبا إنسانيا أصيلا نشأ بالمغرب ولكنه يمكن أن يفيد الإنسانيّة جمعاء. ولم يقتصر احتفاء أحمد التّوفيق بأبي العباس على قراءة أخباره في كتب التاريخ فقط، ولم يكن ينتهي عند إنتاج هذا المنجز الإبداعيّ الرّفيع وحده ولكنه بلغ من إعجابه بالشخصيّة الإنسانيّة الفريدة أن جعلها محور درس دينيّ قدّمه أمام العاهل المغربيّ "محمد السادس"، وليس بعيدا أن يكون مرّد هذا الأمر هو التّوجّه الصّوّفيّ للمؤرّخ المغربيّ.

من أهمّ الملاحظات التي تستوقفك وأنت تطالعها لأول مرّة وتسجلها كأول انطباع عنها: مسألة تجنيسها باصطلاح "الرواية التاريخيّة"، ويحضر المصطلح مباشرة بعد العنوان، وكلاهما قد أخذ من الواجهة الأماميّة نصف فضائها، وعضدت هذا التّوجّه التاريخيّ للعمل وأقرته طبيعة الألوان الموظّفة في واجهتي الغلاف، وهما: الرّماديّ المختلط بالصّفرة المحيلان إلى القدم مع الأسود الممتزج بدرجات الأخضر الباهت، وقد صبغ بها قوس الباب المتشكّل من قبة مقعّرة ومنحنيين ينعطفان منها، وفوقهما تبدّى النقوش الفسيفسائيّة المغربيّة في التّصف الثّاني للواجهة الأماميّة، ويتوسّط نفس الإطار الفسيفسائيّ أسفل الواجهة الخلفيّة، وهي ألوان وأشكال تحيل إلى الحضارة المغربيّة الأصيلة ومعمارها الفريد الخاصّ بها.

وتشدّد بعد ذلك لغة رائقة تأسرك بجزالة لفظها ومتانة سبكها وإشراق صياغتها التي لا يأتي بعدها غروب ولا بين يديها غريب، تدعوك سلاسة أسلوبها الرّقراق إلى أن تغترف من مائها العذب السّلسبيل فتأتيك كاللّبن الرّائب أيّام القيظ الشّديد، كلّما نويت التّرجل عن صهوة القراءة للحظة من أجل قضاء مآربك اليوميّة، تقول لك ذائقتك: لا فكّك من هذا المضيّ اللّذيذ في حدائق السرد اليانعة الخضراء النّضرة، وأنت تسرح بين جنبات حرفها الجليل تقرب من مائها لتغترف منه ما يذهب العطش والكسل فتنهض نشيطا منتعشا تلامس أغصان شجرها بخيال قارئك الذي تدقّق الدّم فجأة إلى وجنتيه، فصار يجنح بأكثر من جناحين، وتأخذك الدّهشة الخلاقّة أنت أيضا تلك التي تأخذه، وبالتّالي يمكننا طرح الأسئلة الآتية: من هو أبو العباس؟ ومن هم جيرانه؟ وأين ينتهي التاريخ لتبدأ لعبة التّخييل؟

ما الغاية من هذا العمل؟ ما فكرته؟

لماذا هذه القراءة لهذا العمل؟ وماذا تحمل مرآة قراءته؟

إنَّ أوَّل ما تنتبه إليه في بداية تصفّحك للرواية، هو تلك الورقة التّقديميّة التي يقدّم فيها الكاتب تعريفين: التّعريف الأوَّل، يهَمّ الشّخصيّة الرئيسيّة لروايته والتي خلق منها بؤرة نشيطة ابتداء من العنوان كنصّ مواز لنصّ المتن، وهو يقول:

"أبو العباس، هو أبو العباس السّبّتيّ/ سيدي بلعباس، صاحب المزارّة المعروفّة بمراكش، دخل هذه المدينة عام 541 هـ/ 1146م، ومات بها عام 601 هـ/ 1205م".

والتّعريف الثّاني، هو عبارة عن إضاعة لاصطلاح "الرواية التّاريخيّة"، ولم يكتف على خلاف المعتاد بتجنيس عمله بل زاد على ذلك فقرة مفسّرة لمفهومه، يقول فيها: "المقصود بكون هذه الرواية تاريخيّة أنّ زمنها تاريخيّ معيّن وهو عهد الدّولة الموحّديّة، وعدد من أشخاصها تاريخيّون، وكذلك عدد من الوقائع، ولكن جرى توظيف هؤلاء الأشخاص وهذه الوقائع حول أبي العباس في نسج روائيّ خياليّ مؤثث بأشخاص آخرين ووقائع أخرى وتعاليق وحوارات لبناء حكي في مساق المعاني التي حملها ذلك التّاريخ"¹.

والواقع أنّ الفقرة إلى جانب كونها تضيء الاصطلاح، نجدّها تكشف في الوقت ذاته طريقة توظيف التّاريخ في فنّ الرواية، على الأقلّ بالنّسبة إلى الرّوائيّ "أحمد التّوفيق" وتقف على طبيعة هذا الخلط بين التّاريخ والأدب، كما يكشف الغلاف بواجهتيه الأماميّة والخلفيّة كيف يمكن للرّسوم والألوان أن تعضد التّوجّه التّاريخيّ للعمل، فمزيج الأصفر والرّماديّ ودرجات الأخضر الباهت في النقوش الفسيفسائيّة الدّقيقة وقوس الباب المتشكّل قبة مقعّرة مع جنبات منحنية لا تحيل إلّا إلى الحضارة المغربيّة العريقة ومعمارها الفريد البديع الخاصّ بها.

وأبو العباس السّبّتيّ في الرواية كما في كتب التّاريخ: هذا الطّفل اليتيم الذي دفعته أمّه إلى العمل صغيراً بعد وفاة والده حتّى يضمن للأسرة الفقيرة مورداً، فأخذته إلى دكان برّاز (بائع الثّياب)، وحاولت أن تعلّمه الحياكة لكنّه كان يهرب من ذلك كلّ مرّة إلى كتاب قرآنيّ يديره الشّيخ "أبو عبد الله الفخّار" الذي حقّظه القرآن الكريم، وقد دفع به شيخه إلى دخول مراكش التي كانت محاصرة من طرف الموحّدين في انتظار خروج المرابطين، وفيها نزل بجبل "ديليز"، وتقول الروايات أنّه تعبّد في الجبل وهو في السّادسة عشرة من عمره²، و"بلعباس" علم من أعلام التّصوّف، ظهر في زمن خفتت فيه أصوات أهل التّبديع، وقد قيل فيه: "ما سمعنا في أخبار القوم بمن بلغ كمثل أبي العباس كمال الحقيقة بإعمال مكارم الشّريعة"³، رجل أصلّ في أتباعه مبدأ "الوجود يفعل بالوجود"، ومذهب "العطاء دواء لكلّ داء"، فنشر مذهبه ودعا إليه جيرانه، (وكان دفنه بمقبرة سيدي مروان خارج باب تاغزوت بمراكش)⁴.

1- أحمد التّوفيق: جيران أبي العباس، -رواية تاريخيّة- منشورات دار الأمان، مطبعة الأمانة، الرّباط، ص 3.
2- عبّاس بن إبراهيم المراكشيّ، الإعلام بمن حلّ بمراكش من الأعلام، وفيه عشرة أجزاء، الرّباط، 1974م/ 1983م، ص 282.
3- الرواية، ص 78.
4- المرجع نفسه.
4- مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتّى القرن 15/9 م، الجزء الثّالث، ص 100.

أما جيرانه، فهم رجال ونساء من الصّالحين ومن أصحاب النّفوذ ومن العلماء الأفذاذ، وقد ذكر منهم: "ابن رشد" و"ابن زهر" و"ابن طفيل" و"أبو الحسن البلسني"، كما تشكّلت الجيرة بخلفاء الدّولة الموحدية ك"عبد المؤمن" وابنه "يوسف" و"يعقوب بن يوسف" وجيران آخرين من التّجار وذوي الأطماع والمتملّقين والأغنياء المترفين، وغيرهم من الأنماط البشريّة التي عاشت في نفس السّياق الحضاريّ لـ"ابن العباس"، فهم "جيران في زمن حضاريّ بنفس مأساويّ". وحدّدت الرّواية التّوفيقية-نسبة إلى أحمد التّوفيق- بدقّة هؤلاء الجيران في الفصل الأخير¹، فمنهم أيضا ذوو التّصرّفات من الموسوسين والجواسيس والمغامرين وذوي العصبيّات الثّائرين من الأغنياء المترفين وأرباب القلم من أهل العلم والنّظر وأعلاما من أهل النّفع القاصد والعمل الكاسب من أهل البناء والتّأسيس وأهل الصّناعات والتّجارات والمخلصين من أهل العرفان وذوي المجاهدات وأهل الدّوق والكرامات والصّلاح من الصّابرين، لكنّ هذه الأنماط لم تؤثر في الرّجل الثّابت على مذهبه بل كانت ريحه مسكا أصاب جميعهم.

والنّسخة الجليلية اليوم تجلو جيرانا آخرين لـ"أبي العباس السّبتي"، جيران اليوم هم جيران في الجغرافيا والجذور والمذهب نفسه، هؤلاء هم أهل الحوز ومراكز الذين شرّفت أجسادهم النّحيلة الطّين وعطّرت أرواحهم الزّكية كلّ المكان، حفدة المرابطين والموحّدين وأهل الرّجالات السّبع والرّباطات، جيرة بروح واحدة هي روح البذل والصّبر والخير، روح أشعت بقوة حتّى أضاءت العالم أجمع، وبدت طهارتها أنصع وسموها أرفع، ولم أكن لأتخيّلها إلّا في شخصيّات يبدعها المبدع إبداعا لا يمكن إلّا أن يكون أصيلا وفريدا، الصّبر الذي لم أر صبرا يشبهه والوجود الذي انفع به كلّ الوجود وقد تبدّى عريضا، جود من فقر وشدة وقسوة ليس بعدهما إلّا السّدرة: "تفضّل لتشرب الشّاي"، "تفضّلي إلى طاجين الدّجاج"... بعض عبارات ردّها منكوبو الزّلزال الذي ضرب المغرب في 2023/9/09م، ونقلها إلينا الإعلام سهوا أو أخبارا.

نحن وراء الشّاشات في ذهول وقلق وهم بين الحطام في ثبات وجلد، تراهم قد فقدوا الأهل والأحبة وتحترق نفوسهم بالفقْد، وما أدراك ما فقد الولد ولكّتهم جميعا كقصائد العظماء لا تدري كيف أنتجوا فيها معناها العجيب، وبنوا فيها فكرتها شديدة اللّطف والابتكار في نفس العالم الذي يجمعنا جميعا، قصائد تسحرك بنباهة ولطف لا تجدهما إلّا فيها ولم يسبق أن خطر لك من قبل، يحرقهم الألم ولا يركع إنسانهم إلّا لله، طفولة في أساير الشّيوخ الطّيبين ورشد ورجولة في ملامح الصّغار واليافاعين وحديثهم وعزّة نفس ملهمة ورباطة جأش عتية وإباء فريد وشدة تعلق بالأرض والوطن تصدم الحاقدين والشّامتين والنّاقمين وقوة إيمان العجائز في كلّ الجبلتين نساء ورجالا، أطفالا وشبابا وشيبة، لا يمكن أن تتخذ ذلك كلّه إلّا مدرسة مغربية أصيلة للناظرين والمعتبرين .

هذه جيرة "أبي العباس" المباركة التي لا يوقفها الزّمن ولا تحولاته، صفوة نقيّة تقية من أهل القرآن في زمن مختّ موبوء، روح صوفيّة عالية وهمّة بشريّة بهيّة، حزنهم نقيّ وفرحهم طفوليّ نديّ، تجعلك ترى تلك المسالك الوعرة الضّيقة التي لم تزدهم إلّا سعة صدور، وتلك الصّخور الضّخمة التي تحاصرهم من هنا

وهناك لم تعلمهم إلا الرحمة والإيثار والحكمة، ولم يتلقف عنف الحضارة الحديثة فطرتهم بأطيافها المسوخة القاتلة ولا الرقمنة استطاعت أن تقتحم تفاصيل بداوتهم الفاتنة. وقد أخذوا من "القاضي عياض" خصلة الذود عن الحق ونصرته، ومن "أبي يعقوب المبتلي" سمة الصبر والجلد، ومن "أبي القاسم السهيلي" أدب الدعاء فعاشوا بهم جميعا وماتوا وقد أحيوا في القلوب مذهب أبي العباس.

4- "أبو العباس" تاريخ وجماليات:

لم أكن أعرفهم من قبل ولم يكن الزلزال وحده ما عرفني بهم، فلقد طالعت صفحات قليلة من تاريخ المغرب العظيم فأسرني ما عرفته من تنوع عناصره وغنى ثقافته وعمق مشاربه وأصالتها وأخلاق أهله وسلطينه، فالورع والتقوى هوى فيهم ومنجى ومنجى ونصرة والتفافا حول كل شريف لجأ إليهم يبتغي التأييد ورفع المظلمة، حكمة بالغة وإنسانية لا يصعد عليها غبار.

كان الكاتب المغربي "أحمد التوفيق" هو نفسه بهذه الحكمة حين اختار بطل روايته، ولم يكن اختياره اعتباطيا أو كما اتفق بل اصطفاه بسعة اطلاعه وعمق إدراكه ووعيه ليكون عنوان هذا البلد، يقول: "بلد يستحق أبو العباس أن يكون ببساطة مذهبه ووضوح مقصده وأصالة مشربه عنوانا شامخا له."

وإذا كان العمل مستندا على عماد قوي راسخ هو التاريخ فإنه بني أيضا بنصوص من القرآن الكريم، واستحضرت فيه أبياتا شعرية مبنوثة في بعض صفحاته، كما توسل فيه بأدب الرسالة من خلال مجموع الرسائل التي تضمها الفصل 64، وهي رسائل ورد/ نرجس لـ "يعقوب المنصور الموحد"، تلك الرسائل التي وجدتها البنت الكبرى "ربيعة" في حلي أمها بعد وفاتها¹.

أخبار وروايات وحوارات، وقائع وقيم وسمات وتصرفات، انتظمت بخيط الحكمة الرفيع لتصهر عناصرها في لحمة فنية متماسكة وتصنع انسجامها بسارد ضليع يتقن اللعب بالخيط التي يجمعها في نقطة واحدة هي نقطة "بلعباس"، ولكن المهارة الفنية لم تخف مع ذلك تلك الفقرات الكاملة التي أخذت من مظانها التاريخية كما هي دون تحوير، خصوصا حين يعمد إلى شرح مذهب الرجل في العطاء²، فهي نقل صريح وكامل من الصفحتين 100 و101 من كتاب "مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9/15 م"، -الجزء الثالث-، التصوف.

وتتحفنا رواية "جيران أبي العباس" بكتابة فنية تشي بإمكانات تقنية وجمالية عند الرجل، هي في دينامية مستمرة ومتجددة وهي ليست ثابتة مكررة وإنما تأتي متناغمة مع البرنامج السردى المختار بعناية، يحضر فيها الوصف حيث يجب أن يحضر، ويجذبك السارد بزوايا نظره إلى شخصياته ووقائع الحكايات، ثم يتناغم ذلك بانسيابية مع مقاطع الحوار الشيقة التي نشعر فيها ببلاغة إمتاع أسرة تجمع بين الأمراء أو العلماء أو الفقهاء في معرض خطهم ودروسهم وكذا في الحوارات الداخلية لبعض الشخصيات، وهي تتضمن لقطات

1- الرواية، ص 266.

2- المرجع نفسه، ص 78.

يمكن أن تتحوّل بها إلى عمل سينمائي جيّد، وهي مغامرة تاريخيّة ناجحة يستطيع القارئ من خلالها أن يبني تصوّراً للأحداث الماضية ويأخذ من ذلك مغزى حسب يقظته وما يتوصّل إليه من نتائج قراءته.

يمكن أن نستنتج أنّ الكاتب بعد عشرين سنة من التّريث والقراءة في التّاريخ والروايات، تمكّن بالفعل من الرّجوع إلى ساحة الأدب بكتابة ناضجة على المستوى الفنيّ تدكّرنا بمستوى الأدب العالميّ، وقد يكون ذلك تأثراً بقراءاته لأعلام الأدب الرّوسيّ، وله علاقة كذلك بتجربة مهمّة راكمتها بأعماله السّابقة، وبحنكة المؤرّخ عمد إلى توثيق الأحداث التّاريخيّة فجاءت "جيران أبي العباس" قطعة أدبيّة بديعة ممتعة ومفيدة لكلّ من يهتمّ الاطّلاع على الجانب التّاريخيّ والحضاريّ لبلدنا المغرب، وتشهد الرواية أنّ مغربنا ليس إلّا مشرقاً لقيم السّلام والتّضامن والوسطيّة والتنوّع. مغرب الرّيفيّ والأمازيغيّ والحسّانيّ والعربيّ والأندلسيّ والمصموديّ والصّنهاجيّ... مغرب الشّماليّ والأطلسيّ والصّحراويّ... فكلّنا جيران أعلامنا العلماء الأفاضل، جوار له أثر الجليس الصّالح حامل المسك الذي تجد منه ريحا طيّبة حتّى وإن لم تتبع منه، واستطاع "أبو العباس" وجيرانه الأخيار من السّلاطين والعلماء والصّالحين والتّقاة والزّاهدين أن ينشروا عطرهم ويطردوا نافخ الكبر الذي لا يعبأ التّاريخ بريحه الخبيثة، وحين يتحوّل النّاس جميعاً إلى حجاب غليظ يحجب الضّوء، يمكن مع ذلك أن يُفتح ويُقتحم ليعود الضّوء أقوى وأبهى ممّا كان عليه، وليس إلى ذلك سبيل إلّا بنشر ثقافة الفضيلة والصّدقة وألوان الخير والعطاء، وقد جاء في الرواية قوله: "النّاس حجاب بيننا وبين الله، حجاب لا يفتح فيه الباب إلّا بنفعهم وخدمتهم"¹.

رواية تضيء حياة أمة وتكشف علو همم قادتها وعلو كعب رجالها في العلم والطّب والفلسفة والقيادة والورع... رجال عمّروا الدّيار وخلفوا الآثار وكانوا أعلاماً كباراً شهدوا على فرادة تاريخ المغرب التي صنعتها فرادة علمائها وشيوخها... وبساطة ناسها. وهذا الباب المفتوح بالتّفعل والإسعاف، لا يغلقه المغاربة أبداً... فلا يخفى بذلك البعد التّربويّ القويّ لهذه الكتابة التي تحتفي بقيم حفظ الأسرار وإعمال العقل والحوار بين أصحاب الوجّهات المتضادّة والعفة والكرم والتّضامن والحرص على مجالس العلم والصّدق والوفاء والحبّ... وغيرها ممّا ميّز الرّجال الصّالحين في الأزمنة الماضية وقد كانوا بها القادة الأقوياء يحسب لكلمتهم ألف حساب وحساب.



1- الرواية، ص 246.

1- أحمد التّوفيق: جيران أبي العباس، -رواية تاريخيّة-، منشورات دار الأمان، الرّباط، ص ؟

2- إبراهيم حركات: مدخل إلى تاريخ المغرب المسلم حتّى القرن 9 / 15م، الجزء الثّالث، نشر وتوزيع دار الرّشاد الحديثة، الدّار البيضاء.

3- عبّاس بن إبراهيم المرّاكشيّ: الإعلام بمن حلّ بمراكش من الأعلام. وفيه عشرة أجزاء، الرّباط، 1974م / 1983م.